هذه المدينة الظالمة ...

تمزقت الجيوش إلى أشلاء، أما الناس فقد أفاقوا من نومهم على كابوس يتمدد فى واقعهم عندما اختلطت الدهشة بدموعهم، وأخذ الزعيم فى منشية البكرى يقرص على أسنانه ويتحسس جرحًا غائرًا ألم بوجدانه، وراح يرقب كل ما يدور فى الشوارع وما يصله من زئير المهزومين، زئير يستجديه البقاء، ويطالبه ألا يتخلى عنهم:

ـ «لا تتنحى»

ولخص أشرف بركات لشقيقه حشمت موقف هذا الشعب العجيب فى مثل ريفى من الأمثلة التى يحفظها ويهواها: «هم يقولون له: يا حشمت، اللى حضّر العفريت يصرفه»

وزاغت أبصار ولدىْ بركات.. فما بدا لهما مؤكدًا ووثقا فيه هو أن العرش المقدس عندما اهتز بقوة ولم يعد باقيًا له سوى السقوط ، خرج الناس فأمسكوا بقواعده، وحالوا دون سقوطه.

وقرص أشرف بركات هو الآخر على أسنانه وهو يتميز من الغيظ.

«أما كان للنمل الجائع أن ينهى البقية الباقية من العصا التى يتوكأ عليها سليمان العصر..؟»

وأمام التلفاز تعلقت الأبصار وهفت القلوب وأرهفت الأسماع إلى ما سوف يقوله أنور السادات من بيان مهم، ومال السيد النحال بوجهه نحو التلفاز وهو يتأمل وجه صاحب البيان وقال: **«هذا الرجل اسمه أشرف بركات»**

فابتسمت خميسة بتعجب:

ـ «تقصد شقيق صديقك حشمت؟ لا إنه أنور السادات. رئيس البرلمان».

ولم يكن السيد النحال يعلم أن حشمت بركات يسأل عنه طوب الأرض:

أين السيد يا عنتر؟ أيناه يا كيمو؟ هذا الولد اختفى قبل أن تبدأ الحرب، ومازال مختفيًا، هل كان يحارب؟ مخى ضرب.. جهزوا تعميرة.

وراح يشد الأنفاس مشجوج الرأس، فلقد استوى عبد الناصر على عرشه رغم الهزيمة «**فياله من شعب أثيم..**»

وفى روف فايز فوده وفى أول سهرة عقدوها بعد النكسة لم يحضر حلمى عبد الباقى فالتمسوا له العذر، وقال فايز فودة معلقًا على ذلك:

ـ «**الآن جاء دور الشعر والمقالات وهى مهمة يتقنها حلمى**»

وقال معوض الجارحى وهو يرنو إلى وابوره العملاق حشمت:

ـ «**لا شعر.. ولا مقالات.. فإما الدموع.. وإما الحشيش**»

ولاحقه ممتاز إبراهيم:

ـ «**الحشيش يكسب.. كنا فى غيبوبة.. فلنظل بها..**»

وقال حشمت بركات:

ـ «**فليحرقنا الحشيش كما نحرقه**»

فهتف السيد النحال:

ـ «**سوف يتهمون الحشيش بالتقصير؛ لأنه لم يساعد المشير..**»

وقال فايز فودة:

ـ «**لم يقل لنا أحد من قبل أن موشى ديان استعان بالحشيش ليجلى فكره**»

فقال حشمت:

ـ «**لا تتهموا السلاح.. السلاح لم يُجرب.. هذه الهزيمة سياسية**»

فرد عليه فايز فودة:

ـ «**اخفض صوتك.. عبد الناصر سيصيبه السعار.. وعودته ملكًا متوجًا إلى الغابة ستمنحه شرعية التهام خصومه بأكثر مما كان من قبل..**»

ولم يخفض حشمت صوته، بل قال بغيظ:

ـ «مادام الأستاذ هيكل قال إن السلاح لم يناصر السياسة فى هذه المعركة، فأنا من الآن فصاعدًا سوف أتبنى عكس ما يقوله.. فالصحيح أن السياسة لم تناصر السلاح، عبد الناصر هو المسئول وليس عبد الحكيم عامر»

وأيقن السيد النحال أن صديقه حشمت لم تعد تعوزه الشجاعة حتى يكشف عن وجهه القبيح ويعلن كراهيته وحقده على جمال عبد الناصر، وتساءل إن كان ذلك لأن الرجل تورط حتى بانت عورته أمام العالم، وأنه لم يعد يملك وقتًا يكفيه إلا لستر عورته..؟ أم أنه صار يعرف عن عبد الناصر ـ عبر ما ينقله إليه أخوه أشرف ـ ما جعله أقل اعتدالًا أمام اسم عبد الناصر الذى كان يبث فيه الرعب والمهابة؟

وتأكد السيد النحال أن كلاب الحراسة ليس شرطًا أن تظل على وفائها لسيدها مدى الحياة؛ إذ من حقها أن تبحث لنفسها عن سيد جديد بديلًا عن القديم ضيق الرزق الذى يكاد يطعم نفسه.

ثم رنا إلى مملكته الصاعدة ورجاله الخمسة وسادسهم عنتر مكاوى وفتاتين فى رحابه حداهن زوجة وضعها فى إصبعه والأخرى يسعى لتثبيتها فى الإصبع الآخر.. ثم حكمت وبشاير اللتين استقر على التخلص منهما بسم بطىء، ثم السيدة مارى التى يبحث لها عن ورطة ـ وهو يأمل أن يساعده القدر بمثل ما ساعده فى الإطاحة بعدوين لم يستمرا طويلًا فى منازلته: فريد هنيدى وطاهر زين الدين.

* * *

تراقص قلب خميسة بالفرحة والسرور عندما كان زوجها السيد النحال يلتقط من العلبة القطيفة الحمراء عقدًا من الذهب راح يعلقه على صدرها بفرحة مماثلة:

ـ «هدية نجاحك، وحصولك على الليسانس، وبداية حياتك العملية.. أخيرًا يا خميسة تحقق أملك»

ضمتة إلى حضنها، وطبعت على خدة قبلة:

ـ «قل.. تحقق بعض أملى.. أملى أكبر من الشهادة»

قال لها: «آمالى هى آمالك.. مصيرنا واحد، ومشروعنا واحد»

ابتسمت وهى تحتل مقعدًا أمامه:

ـ «مشاريعك مقسومة بين خدمة السيارات وخدمة السيدات، فأىّ خدمة سأجد لشهادتى العالية مكانًا بها؟»

ـ «السيدات.....»

ـ «إذن، فقد ساويتنى بفوزية صاحبة الدبلوم، هل هذا يليق؟»

ـ «فوزية ستذهب إلى السيارات..»

ـ «هكذا يمكننى أن أشم رائحة قفزة جديدة»

ـ «سمها ما شئت، لكنها بالنسبة لى خطوة إلى الأمام»

ـ «وقد تكون بالنسبة لى خطوة إلى الخلف..»

ـ «كيف تحكمين على أمر تجهلين تفاصيله، طبيعة تخصصك يلزمك بالاطلاع على الحيثيات أولًا أيتها المحامية»

ـ «كلى أذان صاغية، فهات حيثياتك»

وتهيأ السيد النحال للإدلاء بما لديه، فقال لها بصوت هادئ:

ـ «لو شاهدت الساحة الفسيحة التى يمرح بها عشرات العمال وعشرات السيارات طوال اليوم لن تصدقى أن إيراد هذا المكان لا يصل إلى نصف إيراد محل الكوافير.. وقد عقدت العزم أن أفتتح لك محلًا جديدًا تتفرغين لإدارته، سأسحب فوزية للعمل بمكتب الجراج حتى تأخذى فرصتك كاملة لإدارة محل قصر النيل لعدة شهور.. تعلمى كل شىء، ضعى يدك على كل أسرار المهنة، وفى اللحظة التى تثقين فيها بقدراتك أبلغينى حتى أهيئ لك مشروعك الجديد..»

صمتت قليلًا، ثم قالت:

ـ «هذا المشروع خطوة لك إلى الأمام.. أما أنا فإلى الخلف.. إلا إذا كان التقدم بالنسبة لك هو حصد المال فقط.. »

ـ «وهل هناك سوى المال؟»

ـ «أجل.. أن أكون محامية ناجحة.. أنت لم تلتفت إلى تقديرى بمثل ما التفت إليه

الأستاذ حلمى عبد الباقى، وقرر أن يلحقنى بمكتب كبير أتدرب فيه..»

ـ «حلمى عبد الباقى؟»

ـ «زوج بهيرة، وشقيق المهندسة سوسن، زبونتاك بالمحل»

ـ «هل تقابلتما؟»

ـ «أمام المحل مرة، ثم حرصت أن أحضر بعض محاضراته»

ـ «ولكنك لم تخبرينى بذلك»

ـ «وكم عدد الأساتذة الآخرين الذين أخبرتك بهم؟»

ـ «والمكتب الذى رشحك له: هل جاء بناء على طلبك أم تطوعًا منه..؟»

ـ «تطوعًا من سوسن أخته التى صارت صديقتى بأكثر مما كنت أتوقع»

أحس بحصار لم يتوقعه، وأن لعبة الإمساك بفوزية على بعد قريب منه ومن حكمت وبشاير.. هذه اللعبة ذات الهدف البعيد أو الهدف المزدوج قد تفشل فيها لو تعجل الأمر فى هذا الحوار وأصر على طلبه.. إذن، فليتمهل ويرجئ هذا النقاش الآن..

ـ «دعينى أفكر فى الأمر.. وأنت كذلك.. ماذا لديك الليلة على العشاء؟..»

وراح يرقب تحركها داخل المطبخ من جلسته فى الصالة وهو مشغول بعبارتها المراوغة التى أطلقتها فى صيغة سؤال:

«كم هو عدد الأساتذة الآخرين الذين أخبرتك بهم؟»

«إذن، فهى تعمدت ألا تحدثنى عن أستاذها الذى أعرفه أسوة بكل الباقين الذين لا أعرفهم، وهذا لا يجوز. فما الذى تخبئينه عنى يا بنت عفيفى؟»

أما هى، فقد كانت ترنو إليه من آن لآخر فى جلسته الصامتة وهى مشغولة بما قاله:

«سأسحب فوزية للعمل معى بمكتب الجراح»

ـ «فأىّ عمل يا ابن النحال ستقدمه لك مصففة الشعر فى مكان لا علاقة له بالتصفيف والمكياج..؟ أخشى يا ابن النحال أن يكون هدفك المنشود هو الاختلاء بفوزية.. وأن يكون كلّ هذا السيناريو من أجل هذا الغرض.. فما الذى تفكر فيه يا سيد؟»

وقبل أن يجتمعا على مائدة العشاء كان قد ناقش مع نفسه فكرة تطابق ما أنكرته عليه

من حوار يجمعها مع حلمى عبد الباقى مع تبنى حلمى نفسه لهذا الإنكار

«وقد كان يمكنه فى لقاء ما أن يشير إلى أنه تعرف على زوجتى إما أمام المحل أو فى حرم الجامعة ولو من قبيل الدردشة»

أما هى، فقد كانت ناقشت مع نفسها فكرة اهتمامه بفوزية واهتمام فوزية بنيل رضاه حتى إنها داست على كل سنوات علاقتها بطاهر زين الدين ولم تذهب لوداعه فى المستشفى قبل أن يحملوه إلى البلد ، هذا ما عرفته من رأفت إبراهيم كخبر، وما نقلته رجاء عاملة المحل البدينة من سر أطلعته عليها سيدتها فوزية

«الأستاذ كان يغار من خطيبى.. وقلت لنفسى الحى أبقى من الميت، لا تذهبى..»

وأخذا فى تناول العشاء، وكلٌّ منهما يحفر فى تل الغموض عند الآخر بملعقة صغيرة ينسى أحيانًا ويذهب بها إلى فمه.

* * *

وفيما بعد لم يكن نجاحه فى عقد اتفاق معها سببه مهارته فى الالتفاف عليها كما اعتقد، إنما لأنها قررت أن تمضى معه إلى نهاية طريق غامض قد تجد بعض النور فى آخره فتعرف من هى بالنسبة له، ومن هى فوزية بالنسبة لها.. ولم تعارضه فى تأجيل حلمها بالمحاماة لنصف عام فقط حتى يستقر العمل فى محلها الثانى.

ـ **«بعدها يمكنك الإمساك بحلم المحاماة أيتها الأستاذة»**

* * *

ولم تعارضه فوزية فى نقلة بلهاء لا تتناسب مع مهنتها، ولكنها ناسبت حلمها فى الاقتراب منه، ولم تقترب بأىّ حال من حديث قديم قاله طاهر: **«ستتعلم خميسة الصنعة، ثم يلقى بك إلى الشارع..»** ثم لم تلتفت إلى أن أميرًا أهداها نفس التحذير، ولكن حديثهما ـ طاهر وأمير ـ شىء، وحديث قلبها شىء آخر..

ومضى منذ اليوم الأول إلى هدفه المنشود..

اصطحبها فى زيارة تعارف إلى صاحبتىْ الدور الأرضى بالفيلا، فاستقبلتها حكمت ثم بشاير بما يليق بجمالها الأخاذ ولطفها الشديد وحديث رجلها الأثير عنها. وعلى مائدة

انغداء ـ الذى رتب له سلفًا وفوجئن به عندما أتى خادمها «كله» بلفائف الشواء على غير انتظار ـ داخله السرور وهو يرى فوزية تقوم بتقطيع اللحم وانتقاء أشهاه فتقدمه لحكمت مرة ولبشاير مرة، ثم وهو يرى السيدتين آخذتا فى التعلق بموظفة رائقة أتى بها شريكهما الساحر من قرب الجنة..

ـ «ليتك تطلين علينا من آن لآخر لنسعد بك يا فوزية»

ـ «ستكون إطلالتى يومية.. لا تحملا همًّا لذلك»

وبلا ترتيب منه أو توجيه اختارت فوزية أن تسهم فى إعداد الطعام لصديقتيها فى جزء من يومها الذى يجب أن تصرفه فى عمل لا تحبه، فدبلوم التجارة الذى تحمله قد يؤهلها موضوعًا فى تسجيل المصاريف والإيرادات وتفريغ الفواتير.. لكنه شكلًا وموضوعًا يصيبها بالغثيان، وصار هروبها المبرر إلى الدور الأرضى وسيلة وغاية فى آن واحد.. وصار حرصها على ذلك مشمولًا برضاه حتى عندما أسهبت فى الالتصاق بالعجوزين ازداد هذا الرضا فى داخله، وصفق لهذه الصدفة التى سهلت له مشروعه..

* * *

ذات يوم لحق بها إلى المطبخ منتقلًا إليها من جلسته عند حكمت وبشاير فى الصالون.. أخرج لها زجاجة صغيرة لونها قاتم من جيبه.. وراح يشرح لها ماهية هذا الشىء الذى بيده:

ـ «إنه نوع من دواء التركيب الموصوف لحكمت دون بشاير، وإن إضافته إلى طعام الاثنين معًا لا يلحق الضرر بمن لا تعوزها هذا الدواء وهى بشاير، وهذا يستدعى ألا نخبرها حتى لا تجزع ويصيبها قرف من دواء لن يفيدها..»

ثم عمد إلى حلة خضار السبانخ المطهاة، وألقى فيها بنصف ملعقة، ثم قلبها.. وتذوق منها ملعقتين متتاليتين..

ـ «الطعم لم يتغير.. تأكدى بنفسك..»

فتأكدت بتناول ملعقة ..

ـ «فعلًا.. ولكن لماذا لا نخبرهما طالما أنه لا ضرر»

ـ «أنت لا تعلمين كيف يفكر الأتراك ويقومون بتحميل الأمور أكثر مما تحتمل..

نصف الملعقة هذه لو تناولتها صاحبتها من الزجاجة إلى فمها مباشرة فسوف يغمى عليها من غرابة طعمها.. الطبيب نصح بتذويبه فى طعام سائل.. فهل نعد لهذه طعامًا ولتلك طعامًا آخر؟.. هما بمثابة طفلتين.. تعاملى معهما كأنهما كذلك.. واحتفظى لنفسك بهذا الأمر، وضعى الزجاجة فى مكان لا يعرفه إلا أنت..»

* * *

أما خميسة فإن شعورها الجديد بأنها صارت تملك سلاحًا فى مواجهة الحياة لم يمنعها من الإحساس بالخوف ، فشهادتها فى الحقوق قد تصبح مجرد ورقة لا قيمة لها إذا سرقها الواقع الذى يصنعه زوجها برغبته ويحرك به كل من حوله من البشر وهى منهم.

وبانصياع لا تملك غيره تسلمت عملها فى محل الكوافير، ومنذ يومها الأول هفت روحها أن تلتقى بمن تفضى إليه بهواجسها وهى لم تكن تملك إفضاء إلا لثلاثة: أخيها رجب، ورأفت إبراهيم، وفريد هنيدى، فهم من ربطوا بينها وبين والدها فى سجنه، وكانت تخص «رجب» بما لا يمكن أن تخص به «رأفت» أو «فريد» من أسرار ينقلها لوالديها. وها هو فريد المسكين قد اعتزل العالم، ثم ها هو رأفت إبراهيم قد تسلم وظيفته بمكان بعيد كلفه السكنى فى محيطه بدمياط، أما رجب الذى لم يحس أحد بآلامه عندما انفضت الدنيا من حوله وخلا البيت من كل أصحابه إلاه، فقد انتصر عندما أحس هو بنفسه وكرر تجربة أخته خميسة بمزيد من التحمل لقسوة مضاعفة كانت من نصيبه، فأدار الدكان وواصل دراسته متمتعًا بخدمات متقطعة من بعض خالاته وبعض عماته فى بعض شئون معيشته. ولأن والدها على وشك الخروج من سجنه، فقد أوقفت خميسة نزالًا كان يجب أن يشتد ويعلو مع زوجها الذى لم يحترم شهادتها وآثرت أن تبدو أمام والدها متمتعة بسعادة ظاهرة بعد أن جاءها رأيه فيه، وأرسل إليها لعناته من خلف القضبان، وهمس لها رجب بما يقوله أبوها من أنها باعت نفسها رخيصة لقاتل، وأنها هربت من قبضة الشرطة إلى قبضة ناعمة لمجرم أثيم، وأنه كان من الشرف له أن يراها مظلومة قيد أغلال رجال المخدرات دون أن يراها ظالمة إلى هذا الحد، ظالمة له ولنفسها بالوقوع برغبتها فى شباك صياد لا يرحم، ثم همس لها رجب وقتها ذات زيارة معتادة فى بنسيون السعادة بنصيحة والدهما

«أكملى مهمتك الحقيقية مع ابن النحال كزوجة فى شكل خادمة نالها بالمجان، ولا

تنجبى منه حتى لا تكبلى نفسك فى عجلاته أكثر من هذا لتقليل الخسائر المنتظرة...»

وقتها لم تقل لرجب أن شعورها بالحب نحو هذا الرجل منذ زمن بعيد انتصر على نقمتها على أفعاله، وهى حتى الآن لم تعد تدرى سرّ سطوته على وجدانها منذ خفقة القلب التى كانت تسمع طرقتها بين ضلوعها إذا شاهدته يسير فى دروب القرية، وكيف كانت تكبر هذه الخفقة كلما كبرت هى دون أن يقلل من وقعها شعورها المؤلم أن فارسها لن تكتمل أوصافه.

هى الآن تشعر بحاجتها إلى من تلقى برأسها عنده مثل بهيرة أو سوسن، أو مارى؟ ولكن لماذا وهى ترجو ذلك تلوح أمامها صورة رجل كأستاذها حلمى عبد الباقى، فالعبارات القليلة التى تبادلاها فى حرم الكلية أنبأتها كم هو ثرى فى مشاعره تجاه الناس، وكم هو لماح يبعث عبر بريق عينيه سيل المودة والوئام بوقار وبلا تكلف، فيصك عباراته الدمثة بسرعة لافتة وإيجاز عبقرى، سريع الفهم، سريع الكلام، سريع الحركة والالتقاط.

ـ **«أرجو ألا يكون قد سبقنى أحد وأبلغك أنك تشبهين نفرتيتى يا خميسة.»**

واحتارت كيف ترد على وصف لها لم تلحظه من قبل.

ـ **«ملامحك معجونة بحزن مكتسب وإصرار موروث»**

ولم تجد ما تقوله عن وصف آخر تأكدت أنه صحيح.

ـ **«بهيرة تحدثنى عن دماثتك، معذورة، فهى لا تملك قراءة الأعماق، أما سوسن فهى غواصة ماهرة.. تتحدث عن باطنك أكثر مما تتحدث عن ظاهرك.»**

وتلجلجت.. ما الذى يعنيه بذلك؟.. هل يقصد أنه وسوسن قرآها بشكل أعمق.. وأمسكا بها هو أزيد من التأدب..؟ وهاهو يطلق سهمًا فى كبد الحقيقية بسؤال:

ـ **«لا أدرى كيف يجتمع نقيضان تحت سقف واحد؟..»**

إذن، فهو قد قرأ حالة زوجين اجتمعا شكلًا عند شاطئ التوحد وهما أبعد ما يكونان عن ذلك.. فالحقيقة أن كلًّا منهما يسكن عند شاطئه الخاص. أما آخر ما قاله أمامها بطريقته المعهودة المفعمة بالسرعة والتكثيف:

ـ **«تقديرك المشرف سيمنحنى شرف إلحاقك بمكتب كبير لمحامٍ شهير، فاستعدى لبدء**

حياتك العملية من عنده»

«وها أنذا أبدأ حياتى العملية من عنده هو: زوجى السيد النحال الذى له دائمًا رأيه الآخر، رأيه المختلف، رجلى الذى صرت أعيد تأمله وهو كريم فى إنفاقة وبخيل فى عواطفه، رجلى الذى يأتى بالشىء ونقيضه فى وقت واحد، فأين لى بك يا أستاذى حتى أشكو إليك تمزقى وهوانى؟»

* * *

جاءها ـ رجب الذى لم يعد صغيرًا ـ إلى عنوانها الجديد الذى كتبته له، وفاجأها بما انتهى إليه قرار والدهما قبل أن ينال حريته:

ـ «ستعودين إلى البلد مطلقة من ابن النحال»

ـ «وما الذى سأفعله فى البلد؟»

ـ «تعيشين و تعملين هناك أنت الآن صاحبة شهادة»

ـ «لعلك أبلغته أننى عاملة كوافير، أنا لست كذلك، هناك مكتب كبير فى انتظارى سأعمل به، فكيف أخسر زوجى ومنزلى ومكتبى فى وقت واحد لمجرد أن أبى يحقد على زوجى؟.. قل له إن ما يطلبه ضد مصلحتى..»

ثم جاءها رأفت إبراهيم بعد زيارة رجب بأيام، فهالها منظره:

«ما باله صار هزيلًا هكذا؟»

صافحته على باب المحل غير المسموح فيه باستقبال الرجال، وغابت قليلًا وأوصت عاملتها البدينة رجاء بتسيير العمل، وتحركت أمامه على الرصيف وهى تطرح شالًا ثقيلًا على كتفيها هيا بنا.. واتجهت إلى مكانها القريب المفضل بمحل جروبى

ـ «ماذا بك يا رأفت، أراك كمن تعانى مرضًا لاقدر الله..»

هكذا سألته باهتمام وتألم وهى تحتل مقعدها فى مواجهته لتكتشف بعد حين أنها وهى تهفو إلى من تشكوه لواعج قلبها وتشتت عقلها لم تكن تعلم أن رأفت الصامت دومًا، المهذب بطبيعته، ليس سوى مخزون بائس من اللواعج والتشتت.. فما أسر لها به من قبل حول قسوة عمه الوحيد الذى أبعده بإصرار عن القاهرة كان مقدمة أن يشرح لها قسوة

هذا القرار على قلبه العامر بحب ليلى بنت هذا العم الفظ، وكيف مات أمله بالاقتراب منها إذا التحق فى القاهرة بكليته المستحقة، ولم يعلم والده الأسطى إبراهيم عبد الواحد أن ولده اختار السلام مع عمه والقسوة على نفسه فنفى نفسه باختياره إلى الإسكندرية ليحافظ على باب الحبيبة مواربًا، فقد يتسنى له أن يطرقة ذات يوم ويذهب لطلب يدها.. وها هو الأسطى إبراهيم عبد الواحد المخدوع يذكّره فور تخرجه أن يذهب لزيارة أسرة عمه فى مهمة تمهيدية لزيارة أكبر سيقومون بها جميعًا لخطبة ليلى، وفى شرفة شقتها بشبرا خفق قلبه وهو يتأمل ما بدا فى شكلها الهادئ من جمال كله نضارة وحيوية ورشاقة، قال لها:

«تسلمت عملى بمديرية زراعة دمياط.. لقد منحونى منزلًا صغيرًا به حديقة.. أتخيلك معى فى هذا المنزل.. أعجبنى أنه قريب من الترعة.. من بين ما تخيلته أننا سنجلس على شاطئها ونصطاد السمك بالسنارة كما كنا نفعل ونحن صغار.. «شهقت باستغراب: «دمياط؟ وترعة؟ وسنارة؟ هل هذه أحلامك يا رأفت؟»»

وما أحزنه أنها انفلتت من الشرفة إلى داخل الشقة دون أن تستأذنه وغابت طويلًا ولم تعد، فتحرك غارقًا فى خجله ليجدهم هناك فى غرفة الصالون صامتين فى جلستهم، وهناك غضب يلوح على وجه عمه، ومثله يبدو فى وجه زوجته، أما ليلى التى حدثته منذ سنوات من فوق كرسى يتأرجح، فهى تجلس الآن جامدة الملامح وهى تؤرجح ساقها المشبوك على الساق الآخر.. ناداه عمه..

ـ ««اجلس يا رأفت.. «وبعد حين سأله» ما الذى قلته لابنة عمك؟..»

راح يبحث عن شىء يقوله، ولم يجد أجدى من التصريح بسر زيارته:

ـ «أبى و أمى يا عمى سيأتيان معى قريبًا ليخطبان لى ليلى..»

فسأله باستخفاف: «حتى تأخذها معك إلى دمياط؟»

لم يرتح للهجته، فقال له:

ـ «سوف أحصل على منزل أكثر اتساعًا عندما أتزوج، فأسر المهندسين هناك تنعم بحدائق وخدم وحظائر للدواجن»

صاح عمه: «لا حدائق ولا خدم.. ابنتى لا تغادر القاهرة»

فلاحقته الحبيبة:

ـ «هذا إذا وافقت على فكرة الزواج أصلًا..»

فأوضحت أمها: «ليلى ستسجل الماجستير.. أنت فاجأتها يا رأفت..»

فعاد إلى عمه بملامح لا تخلو من التوسل:

ـ «لا بد من القاهرة يا عمى؟..»

فأجابه بنفس نبرة استخفافه الأولى:

ـ «أجل يا ضنايا.. لا بد من القاهرة... شيء عجيب!! هل هناك بنت تدفن نفسها عند الفلاحين وتترك القاهرة؟..»

وخرج للمرة الثانية من بيت الحبيبة وهو لا يكاد يرى أمامه.

وفى البلد قال له والده الأسطى إبراهيم: مابك يا ولدى؟ وللمرة الثانية لم يشأ أن يكون الخصام والغضب هما الشيء الثالث المتحرك بين اثنين: والده، وعمه.. فأتى بكلام لم يخطر على باله، كلام قاطع أثار ذهول أمه وأبيه معًا:

ـ «ليلى أختى فى الرضاعة.. زوجة عمى أرضعتنى معها، ولا يجوز لى الزواج بها، هذا هو سرّ حزنى يا أبى»

راحت أمه تتذكر ومعها الأسطى إبراهيم: متى، وكيف، وهل أمها واثقة؟ أهى التى قالت ذلك؟ أنا يا ولدى لا أتذكر فأنت تكبرها بأكثر من عام، وعندها خبط الأسطى إبراهيم كفًّا على كفٍّ مرددًا: يا فرحة ما تمت أخذها الغراب وطار» أيقن رأفت المحزون أن كذبته انطلت على والديه، لكنه راح يبحث بقلب موجوع عن شكل ذلك الغراب الظالم الذى خطف فرحته ثم طار بها: هل هو عمه؟.. أم هى حبيبته ليلى التى كانت عصفور أيامه وبلبل حياته المغرد إلى أن وثق فى نهاية زيارته الثانية أنها كانت هكذا فقط فى خياله المخدوع وقلبه الواهم وعقله الساذج البرىء؟

* * *

وتحول رأفت إبراهيم أمام خميسة إلى ضحية جديدة من ضحايا الحب، وانضم بجدارة إلى ناد بائس صغير سبقه إليه طاهر زين الدين، أما هى فمازالت تقف على بابه دون أن

تدرى تمامًا هل هى بالفعل ضحية من ضحايا هذا الشىء الذى اسمه الحب أم أنها ضحية نفسها..؟ ولكنها فى كلِّ الأحوال تعاطفت مع ابن بلدها المكافح الفقير الذى لم يجد مانعًا عنده أن يعمل بيومية مع أبيها كنفر من الأنفار فى إجازة الصيف، فهل كان فقره هو الغراب الجاثم دومًا فوق فرحته؟ ولماذا يدفع ثمن فقره مهانة فى الحياة وذلًّا فى الحب؟.. وأما كان يمكنه أن يواجه فقره بمثل ما واجهاه به ولدىْ النحال من كذب وتضليل وزيف وتلاعب؟

وانتهت خميسة إلى أن رأفت إبراهيم رجل صالح نفسه، وسار خلف بوصلة روحه السوية فأنقذ نفسه من ضلالات كان من الممكن أن يزينها له واقعه، ويكفى أنه لم يبعثر أحزانه فى وجوه الآخرين واحتفظ بها لنفسه واحتفظ فى أعماقه بشلال الألم الناعى لنصيبه المقدور، فجاء ذلك على حساب صحته التى صارت عليله..

وعندما جمعت شتات مشاعرها وتهيأت لإبلاغه برسالة سيقوم بنقلها إلى أبيها فى سجنه اكتشفت أنها ستأتى بقرار أشبه ما يكون بقرار ليلى بنت عمه، بنت المدينه التى اقشعر بدنها وفرت هاربة من فكرة انتقالها للحياة فى الريف، ومع هذا فلم تتردد خميسة أن تتسم بالواقعيه وهى تقول لرأفت إبراهيم:

ـ «أبى أرسل إلىّ طالبًا أن انفصل عن زوجى وأشتغل فى البلد وأعيش بقية حياتى هناك. أنا لم أشأ أن أبعث إليه برد مع رجب حتى لا أصدم أخى، فقل لأبى قد أعود إلى البلد مضطرة فى حالة واحدة أن تبتر ذراعى مثل فريد فى حادث أو تبتر ساقى مثل طاهر بسرطان. فإن لم يغفر لى زواجى من السيد، فليعلم أنه كان خيارى المفروض، وأما ما يطلبه أبى فهو خيار من خيارات كثيرة فليسمح لى بانتقاء ما يناسبنى منها..؟»

فسألها رأفت:

ـ «كل هذا حتى تظلين بالقاهرة؟»

ولما أومأت إليه بالإيجاب، اندفعت إلى نفسه عاصفة من الكراهية لهذه المدينة الظالمة التى طردوه منها مرتين، مرة لأنه لا يجب أن يقيم بها قرب ليلى، والمرة الثانية لأنه لا يملك الإمكانيات التى تساعده على الإقامه بها مع ليلى.